دراسات فى الفن

هشت ... !

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

— هشت !

— ... ما قلة الحياء هذه ؟ أنداء هذا تناديني به فى الشارع ؟

— وماذا أيضاً فى هذا النداء يغضبك ؟ إنه النداء الذى كان لا بد أن تلبيه . وقد لبيته

— ومن أين جاءك هذا التأكيد ؟ هل جاءك أنى تسميت أخيراً « هشت » ؟ أليس لى اسم تناديني به ؟

— ومن أين جاءك هذا الاسم ؟

— سمانى به أبى ... ثقلت عليك الثواقل ... ألست تعرف أن لى اسماً ؟

— أعرف أنهم يطلقون عليك لفظاً يعلمونك به بين سائر الناس ، وأعرف أيضاً أنك رضيت بهذا الاسم وسكت عنه ولم تعارضى فيه ، ولكننى لا أذكر أنك أخذت رأيى فى هذا الاسم وفى مدى صلاحه لك ، وفى قيمة المؤثرات التى أنتجته ، وفى تحديد ما كان من هذه المؤثرات طبيعيا ، وما كان منها مصطنعاً متكلفاً...

— يا دين النبي ! أتريد أن نعقد المفاوضات فى هذا كله ، ثم نتفق على هذا كله قبل أن تناديني باسمى ؟ من يدريك أننا قد نقضى العمر فى هذه المناقشات قبل أن نتفق على اسم كل منا ، فإذا فرغنا من هذا كنا قد أفرغنا قوانا فيه فلا تستطيع بعد ذلك أن نتحدث فى موضوع ما ، فإذا اجتمعنا بعد ذلك قلت لك وأنا ألهث من متاعب اسمى واسمك : تشرفنا يا من الله أعلم باسمك ، فتقول لى : « حفظتم » ، ومن يدرى فلعلك تسألنى : « و ن أين جاءك أننا تشرفنا » ؟

— هو هذا . فالاسم إذا لم يكن تعبيراً صادقاً عن المسمى كان اسماً كاذباً ، وقد اعتاد الناس أن يسموا أبناءهم عند ولادتهم وهم لا يعلمون من أمرهم شيئاً ولا من صفاتهم شيئاً فيسمون « عفيفاً » من قدر الله له أن يكون « دنيئاً » ويسمون « مؤمناً » من قدر له الله أن يكون « كافراً » ... ويسمون مايشاءون ، ولله فى عبده أسماء وعلامات قد تتفق مع أسمائهم ، وقد لا تتفق وكان يمكن للأسماء جميعاً أن تتفق مع مسمياتها ولو فى الظاهر ، إذا لم يتعجل الناس ويسموا أبناءهم ، وإذا تريثوا حتى يقضى كل فرد حياته المقسومة له فى الدنيا فينظروا فيها ويستخلصوا منها الوصف الذى غلب عليه فيسموه به ... هذا هو ما كان يجب أن يحدث ولكن الناس متعجلون ، وقد رأوا أن الله وهب لهم ميزة النطق فاستغلوها بالحق وبالباطل ، وأعملوا فيها عقولهم ، وراحوا يخترعون الألفاظ والكلمات ليقضوا بها حاجاتهم العاجلة ، ونسوا أن القدر الذى هيأ لهم النطق قد هيأ لهم اللغة ... أو هم قد حسبوا أن أمر اللغة هذا موكول لهم فحرروا تصرفهم فيه ، ولم يقيدوه إلا بإرادتهم ، وإرادتهم كانت فى البدء سليمة ، ولكنها أخذت تتهلهل وتتمزق وتتشعب فأصبحوا يريدون مالا يصلح أن يكون موضع إرادة ، أو متجهاً لرغبة ، فبدأوا منذ ذاك يخطئون الكلام ، حتى تفرقوا شعوباً لكل شعب إرادة ، فتبلبلت ألسنتهم وأصبح لكل شعب لسان ، وياما فى هذه الألسنة جميعاً من كلام ما أنزل الله به من سلطان ...

— يخيل إلى أنك كنت تفضل أن يكون الإنسان حيواناً صامتاً

— بل كنت أفضل أن يتكلم الناس كلهم لغة واحدة ... فقد خلقهم الله ناطقين وليس عليهم أن يصمتوا بينما أراد الله بهم أن يصبحوه بكرة وعشياً ...

— ولماذا لا تدعو إلى الاسبرانتو ... مادمت تريد أن يتكلم الناس جميعاً لغة واحدة ...

— الاسبرانتو لا يمكن أن يتعلمها الناس إلا بالتلقين فى المدارس ، أما اللغة التى أطلبها فلغة ينطق بها الناس أينما كانوا من تلقاء أنفسهم بلا معلم ، ويفهمها الناس أينما كانوا من أنفسهم بلا معلم أيضاً ...

— وهل هذا ممكن ؟ أو أنت لم يعد يرضيك إلا أن تشرئب إلى المستحيل ؟

— إن الذى أطلبه ممكن وممكن ؛ بل إنه أكثر إمكاناً من الممكن ، فهو كائن وحادث

— فى أى عالم كان هذا وحادث ؟ فى أى دنيا وفى أى أرض ؟

— فى أرضنا ودنيانا هذه ، ولكن ليس فى عالم البشر ، وإنما هو فى عالم الحبر ، وفى عالم الخراف ، وفى عالم القطط ، وفى عالم الكلاب ... فى هؤلاء العالمين وفى غيرهم . هات قطاً من أمريكا، وهات قطاً من أفريقا ، وهات قطاً من أوربا، وهات قطاً من حيثما شئت، واجمعها فى صعيد وانظر بها واسمعها وهى تموء وتقول « نو » ثم قولى لى بعد ذلك أرأيت أنها تتفاهم أم لم ترى ؟ أما أنا فأقول لك إن كلا منهما يفهم صاحبه ، ويعرف ما الذى يريد وما الذى ينزع إليه ...

— إن كل قط يراقب حركات صاحبه فيعرف منها الذى يريده

— اخفى القط عن صاحبه تري أنهما لا يزالان يتفاهمان

— بأى شىء يتفاهمان ؟

— بلغة القطط

— وهل للقطط لغة ؟ أنا لم أسمع قطاً يقول غير «نو» ، فإذا فرضنا أنها لفظة فهل يمكن أن يقال عن اللفظة الواحدة إنها لغة ؟

— إنها لغة، وإنها لغة كاملة، والقطط فى الحياة الطبيعية تقضى حاجاتها جميعها بها ، وهى على هذا الفقر والجدب الذى ترينه تحتفظ بمكانة لا بأس بها بين لغات الأرض ، فالنسبة بينها وبين اللغة الصينية كالنسبة ما بين ١ ، ٣٠٠٠ أو ٦٠٠٠ وهو أقصى إحصاء لاقانى للغة الصينية ... وهذه نسبة تذكر من غير شك وتستحق التأمل من غير شك ... فليس هيناً أن يكون شعب من الشعوب عتيقاً مثل الشعب الصينى ، ولا تتباعد النسبة بين لغته ولغة القطط أكثر من هذا البعد الطفيف . والنظرة التى أنظر بها أنا إلى الشعب الصينى هى نظرة إجلال وإكبار، فأنا مؤمن بأنه شعب مغرم بالقداسة والطهر والاتجاه بالنفس إلى إرضاء سنن الطبيعة المتطورة المرتقية التى سنها الله ، وهذا هو السبب فى أن اللغة الصينية لا تزال قليلة الكلمات إلى جانب غيرها من اللغات ، فإن أهلها لا يحبون الثرثرة ويستغرقون فى التأمل طويلاً ، يبحثون عن أنفسهم ، وهم لا يتكلمون إلا فى الضرورى من الحاجات ، وضروراتهم الخاطئة قليلة إلى جانب ضروريات غيرهم الخاطئة العاجلة ...

— إذا وافقتك على أن الميل إلى الصمت والاستغراق فى التأمل هما السبب فى قلة الألفاظ عند الصينيين فلا أظن أنى أستطيع موافقتك على أن التأمل هو السبب فى قلة الألفاظ عند الحيوان ...

— لماذا لا يكون هذا هو السبب ... أتنكرين على الحيوان أنه يتأمل وأنه يتفكر ! ... من التعسف الشديد أن تقول هذا ، فالحيوان يتأمل ويتفكر ، ويبدو عليه ذلك ، وإن للحمار والحصان إطرافة بينة ولها معان ، وقد أحس بعض الشعراء والأدباء والفنانين الصادقين هذه المعانى فناجوا الحيوان ... أفكان هؤلاء مجانين فنانين أصحاب خيال ؟ طيب ، وما رأيك فى سيدنا سليمان الذى كان يكلم الطير والدابة ... أفكان هذا نبياً وكانت هذه معجزة ؟ طيب ، وما رأيك فى مدربى شركات السيما الذين علموا رن تن تن وغيره من النجوم الحيوانات التمثيل ؟ أليس هؤلاء ممن يتفاهمون مع الحيوانات ؟ إن التفاهم مع الحيوانات ممكن ، وإن للطبيعة لغة ! وإن من المخلوقات ما لا ينطق إلا بما توحيه الطبيعة من الكلمات والألفاظ ، وإن منها ما يثرثر ، وليته يثرثر فيما ينفع ... تق أن الإنسان لو كان قد صبر حتى تعلمه الطبيعة الكلام لكان قد اهتدى إلى ألفاظ ينادى بها الجماد فيلبيه

— الجماد الجماد ؟

— الجماد وما هو أجمد . ألم يقل الله فى قرآنه إن هذا القرآن لو قرئ على جبل لاندك ؟

— والقرآن عربى

— وهل قلت لك إنه لاتينى أو يونانى ... ولكن اذهبى واقرئيه على جبل وانظرى أيندك أم تندكين أنت ؟ إن الذى يدك الجبل هو القرآن العربى لو قرئ بالروح والإرادة

— ولكن اللغة التى كنا نتحدث عنها لغة قلت لى إن لها ألفاظاً

— وهل أنكرت أنا أن هذه الالفاظ عربية ؟ ! إنما الذى أنكره هو أننا ننطق هذه الألفاظ من أعماقنا ... أقول لك هذا وأذكرك بأن فى القرآن ألفاظاً لم يعرفها العرب قبل القرآن

— تريد السندس والاستبرق وما إلى ذلك ؟

— لا . فهذه من صنع الناس أيضاً ... وإنما أريد : « كهيعص » ، و « حم » ، و « يس » ، و « طه » ، و « الر » وما إلى ذلك ... هل تعرفين معانى هذه الألفاظ ؟

— لقد اختلفوا فيها أيما اختلاف ... فهل اهتديت أنت إلى معانيها ...

— ليتنى أعرف معنى إحداها ، من يمينى « يس » بليسانس الآداب ودبلوم التربية ؟ ! هاتين الهباءتين اللتين لا تشهدان على شىء إلا الاطلاع على ما قال القبعثرى وما قالت مونتسورى ! هف ! أريد أن أتكلم يا رب ... ولكنى أحرك شدقى وأصوت فيتعثر لسانى فى حروف سفها أجدادى بعضها إلى جانب بعض . هل سمعت حيواناً يتلعثم ؟ هل سمعت يوماً ثوراً أراد أن يقول

« بع » فقال « كع » أو قال « سع » ولكن الناس يتلمثمون فلماذا يتلمثمون ؟ ولماذا لا يتلعثمون إلا عند ما يلتفتون إلى أرواحهم وأنفسهم عند التدبر أو عند الحذر ؟ أليس ذلك لأن هذه الألفاظ التى نصطنعها ليست من الطبيعة فى شىء وأنها تفلت منا ما لم نوجه إليها انتباهاً خاصاً ؟ أليس كذلك ؟ ..

— إن هذا سبب لا يمكنك أن تقطع بأنه السبب

— إنى أعلم هذا ، وأعلم أيضاً أن كل ما قلته لك لا يمكننى أن أقطع به ، كما أعلم أن القطع به يحتاج إلى تجنيد علماء النفس ، وعلماء اللغات ، وعلماء كثيرين غير هؤلاء يتقصون ويدرسون ويشاهدون ويجربون ويقضون فى بحثهم هذا السنين ، وربما القرون . وقد ينتهون إلى تكذيب هذا الكلام وتسخيفه ، ولكن ليس معنى هذا أن أحداً من الناس يستطيع منذ الآن أن يرفض هذا الكلام ، فرفضه يحتاج إلى تفكير مثلما يحتاج إلى التفكير قبوله ، وإن معى من القرائن والأدلة ما يحتاج إلى جهد قبل تحطيمه ...

— على منها بدليل وقرينة

— أما دليلى على أن للطبيعة لغة تعلمها للناس فإجماع الأطفال فى الدنيا كلها على نداء الأب بقولهم « بابا » وعلى نداء الأم بقولهم « ماما »... ولا تزال اللغات تحتفظ بالباء أو ما يشبهها فيما أطلقت على « الأب » من أسماء كما لا تزال تحتفظ بالميم وما يشبهها فيما أطلقت على « الأم » من أسماء.. أما القرينة..

— إن الأطفال يقولون بابا و ماما لأن الباء والميم حرفان مفرقمان من حروف الشفتين ، وحروف الشفتين هى أسهل الحروف وأسرعها إلى الخضوع والانسياق للانسان

— طيب ، ولماذا لا يخطىء طفل فيقول لأمه « بابا » ولأبيه « ماما » ؟ هل يعلمه أحد هذا ؟ الطبيعة تعلمه إياه . وفى لفظة « ماما » ما يشبه حركة الامتصاص والرضاعة ، وإن فى لفظة « بابا » ما يشبه الاستنجاد بقوة الأب...

— صحيح أو كأنه صحيح.. وكنت تريد أن تستشهد بقرينة ...

— نعم . إن الأرض فى اللغة العربية اسمها « أرض » ، وفى اللغة الإنجليزية اسمها earth وهى تنطق إرث و « الإرث » فى اللغة العربية ما يورث ، والإرث فى الأديان جميعاً هو الأرض أورثها الله للانسان ... واللغة العربية بعيدة كل البعد عن اللغة الإنجليزية ، وعلماء اللغات يوسعون الشقة بينهما ، فلا بد أن تكون كلمة الأرض وكلمة earth مما علمته الطبيعة للناس اسماً للأرض ، لأن هذا التشابه لا يحدث إلا فى هذه الحالة ، أو فى حالة أخرى ، وهى أن تكون لغة من هاتين اللغتين قد أخذت هذه الكلمة من اللغة الأخرى ، وهذا يستبعد أن يحدث فى اسم الأرض التى هى أم الناس جميعاً والتى يعرفها الناس جميعاً ، والتى لا يمكن أن يظل شعب من الشعوب غافلاً أو عاجزاً عن تسميتها ، حتى يأخذ اسمها عن غيره

— وماذا أيضاً ؟ ...

— ليس على أن أصل بك إلى نهاية الطريق ، بل يكفينى منك أن أشير إليه ، فاسعى إذا شئت ، ولكل إنسان ما سعى .

— وهبنا وصلنا إلى هذه اللغة الطبيعية التى تقول عنها . فماذا نصنع بها أكثر مما نحن صانعون بلغاتنا ...

— أول ما يحدث أن ينمحى من الدنيا الكذب ، فكلمات الطبيعة لا يلفظها إلا الطبع ... عندئذ يستطيع الإنسان أن يستمع إلى صاحبه بأذنه فقط ، وألا يتفرس فى وجهه بعينه ، ليرى مدى ما ينطبق كلامه على ما يختلج فى نفسه ... عندئذ ستنكشف الأنفس وتخاطب الضمائر الضمائر ... فإذا قلت لك « هشت » ...

— قلت لك « كش » ...

— فقلت لك « هم » ...

عزيز أحمد فهمى

صدر كتاب :

وحى الرسالة

فصول فى الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

بقلم

احمد حسن الزيات

وهو يقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط

وثمنه ٢٥ قرشا

ويطلب من مجلة الرسالة ومن جميع المكاتب الشهيرة